المحاضرة الثالثة:
خصائص البحوث الكيفية وحالات استخدامها:

أولا- خصائص البحوث الكيفية:

إن البحوث النوعية والتي تعتمد غالبا على المقابلة والملاحظة بالمشاركة كأداتين أساسيتين لجمع البيانات هي بحوث معقدة من حيث أنها تنتج كميات كبيرة من البيانات، وتحليل هذه الأخيرة يستغرق وقتا طويلا، ومن ثم فإن التحليل الناجح لهذه البيانات يتطلب من الباحث أن يكون ماهرا وخبيرا ويتمتع بالرؤية العميقة والموثوقية.[1]

أما عن معايير الدقة والانضباط المنهجي في البحوث الكيفية ففي دراسة قامت بها الباحثة الكندية "Savoi eZajc " لأربعون عدد من مجلة "Qualitative Inquiry " التي صدرت خلال الفترة الممتدة بين 1993-2003 بهدف تحديد معايير الدقة العلمية التي اعتمدت في الدراسات الكيفية التي نشرتها هذه المجلة،هذه الدراسة التي قدمتها الباحثة في الملتقى السنوي التي تنظمه هذه المجلة في سنة 2003 قد حددت 13 معيارا وهي:[2]

- تموقع الباحث أثناء البحث بالنسبة للمبحوث.
- إستراتيجية الكتابة.
- التوصيف الثري بحيث يجب أن يكون التوصيف ثري دقيق لجميع المضامين المعنية بالدراسة
- توضيح المسالك النظرية والإيديولوجية المنتهجة من طرف الباحث.
- استعمال عدة درجات و طبقات في التأويل.
- الرجوع إلي المشاركين في البحث.
- القدرة الفكرية للباحث.
- نوعية التفاعل بين الباحث والمبحوث.
- مدة الدراسة الميدانية.
- تحديد درجة ذاتية الباحث في التأويل.
- اللجوء إلي التأكد عن طريق التدقيق في البيانات والمعطيات الميدانية.
- مدى التنوع في العينة المختارة.
- طبيعة الدليل اليومي الذي يستعمله الباحث في إجرائه وقيادته للبحث.

أن البحوث الكيفية لا تعتمد على التكميم الرياضي والإحصائي لضمان المصداقية العلمية وإنما تتحقق له ذلك من خلال:[3]

- التركيز على الفهم مع التحديد الدقيق والواضح لوحدة التحليل والملاحظة.
- اختيار الأدوات المناسبة لجمع المعطيات الميدانية فيما تتناسب وتحقيق هذا الهدف والمتمثلة في الملاحظة بالمشاركة والمقابلة.
- الحذر من الوقوع في الأخطاء التي تقضي على مصداقية المنتوج المعرفي لأي عمل بحثي.
- إتباع خطوات ومبادئ ذهنية وفكرية دقيقة ومنظمة بهدف الوصول إلي الإحكام النهائية القائمة على البراهين المنطقية.

ويرى "ريمون بودون" بأن الدراسات الكيفية تنطلق من سؤال كيف؟[4] مثال: كيف يتفاعل الطلبة في العملية التعليمية عبر مواقع التواصل الاجتماعي؟، أو سمات السياسة الإعلامية في الجزائر، أو مثلا تطور حرية الإعلام في الجزائر.

ولهذا فإن هدف البحث الاجتماعي والإعلامي في البحث الكيفي، ليس اختبار الفرضيات وإنما تكوين الفرضيات والنظريات، أي أولوية البيانات والميدان على الفرضيات النظرية، التي يتم اكتشافها وتكوينها من خلال الدراسة الميدانية، حيث أن اكتشاف النظريات عن البيانات مهمة أساسية للعلوم الاجتماعية مثل اختبار النظريات، فمن خلال النظريات نحصل على التنبؤات والتفسيرات والتطبيقات.[5]

وعلى هذا يأتي البحث الكيفي بسمات وخصائص فريدة تأخذ بعين الاعتبار خصائص الظواهر الإنسانية المتسمة بالتغير المستمر والواقع متعدد الجوانب " Multiple Reality "، والسببية الدائرية "Circular Causality"، ليعطي آفاقا جديدة للباحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية تمكنه من الاندماج مع الظاهرة الإنسانية والتفاعل معها وصولا لفهم الواقع الاجتماعي المرتبط بها.[6]

كما أن البحث الكيفي يستخدم العينات التي تتسم بالقصد، مثل العمدية والثلجية، لأن الباحث يختار الأفراد والمواقع التي يرى أنها ستعينه في فهم الظاهرة التي يدور حولها البحث، مع الحصول على تصريح من الجهة أو الأفراد الذين سيجري عليهم الدراسة، فعملية جمع البيانات الكيفية تتم من خلال المقابلات والملاحظات، والوثائق وتجمع البيانات عبر أسئلة مفتوحة النهاية، كما أن البحوث الكيفية تبدأ غالبا بتحليل الحالات، ثم القيام بالمقارنة وتعميم هذه الحالات، إضافة إلى ذلك، فإن البحث الكيفي ينطلق من بنية الواقع، ومن البنى الذاتية للمبحوثين، وطريقة البحث كعملية بناءة، ومنه نجد أهمية مصادر البيانات المرئية (الملاحظات، المقابلات، الوثائق، الصور، الفيلم)، فهو مازال علما نصيا، ينطلق من مفهومي الفهم والمغزى.[7]

وتعتمد البحوث الكيفية في جمع بياناتها على مصادر عديدة، من الأفراد من خلال مقابلات مطولة، من الوثائق التاريخية، من الكتب والمطبوعات، بالإضافة إلى محتوى وسائل الإعلام، والمواد المسجلة السمعية والبصرية، وتتميز بتعددها وتجددها نتيجة عدم وجود تخطيط مسبق، أما فيما يخص تحليل وعرض البيانات، فهي تحلل البيانات وتعرضها بحيث تصف الاتجاه العام أو السائد بتفصيلاته المتعمقة –وليس بمؤشراته وخصائصه الكمية-، ويتضمن هذا الاتجاه السائد العديد من الاستنتاجات والاستدلالات، مع إبراز التفاصيل والاستشهادات مصاغة في صورة غير رقمية.[8]

ثانيا- حالات استخدام المدخل الكيفي في البحث الإعلامي:

إن ما يميز البحث الكيفي هو أنه يفيد في حالة عدم وجود متغيرات محددة، فكل ما يريده الباحث هو الاستكشاف، فإنه يعتمد في المقام الأول على المبحوثين في هذا الاستكشاف، مثلا: كيف يفكر الطلاب الصم عندما يستخدمون لغة الإشارات؟، كما أنه أكثر اهتماما بفهم الظاهرة الاجتماعية والاتصالية من منظور المشاركين أنفسهم، ومن خلال معايشة الباحث لحياة المشاركين العادية، حيث أن الأفعال الإنسانية وآراء الأفراد ومعتقداتهم تتأثر بالمواقف والبيئة التي تحدث فيها، ومن خلال الإطار الذي يفسر فيه الأفراد أفكارهم ومشاعرهم وأفعالهم، ويتم التوصل إلى هذا الإطار من قبل الباحث خلال جمع البيانات وتحليلها.[9]

ويتم اللجوء إلى البحوث الكيفية عندما تكون هناك معرفة محدودة أو بسيطة عن مجال أو موضوع معين، وعندما يشك الباحث في المعرفة المتاحة في هذا المجال أو النظريات المتوفرة عنه، أو أن هذه النظريات يراها الباحث على أنها متحيزة ، وعندما يكون سؤال

البحث موجهاً أو يسعى لفهم أو وصف ظاهرة معينة أو حدث معين لا يعرف الباحث الكثير عنه أو تتوفر عنه معرفة محدودة، ومن هذا المنظور فإن جزءاً كبيراً من البحوث الاستكشافية (الاستطلاعية) يعد نوعاً من البحوث الكيفية، ذلك أن البحث الاستكشافي يتم استخدامه عندما لا تتوفر معلومات كافية عن الظاهرة أو المشكلة محل البحث خاصة في حالة عدم توفر دراسات سابقة من قبل حول المشكلة محل الدراسة.[10]

حيث تكون البحوث الكيفية ضرورية في ظروف ندرة المعلومات عن الموضوع، أو عندما تكون المعلومات مشتتة أو غامضة وتستدعي التنقيب عنها حتى يمكن صياغتها في إطار علمي متكامل ومتماسك، كما تكون البحوث الكيفية ضرورية للوصول إلى تفسيرات متعمقة للمعطيات الكمية، وما يكمن وراءها من دلالات.[11]

ويرتبط ذلك بدور البحوث الكيفية في تحقيق أغراض البحث العلمي في الوصف والتفسير والتحقق والتقييم، كالآتي:[12]

- **الوصف "Description":** يمكن للبحوث الكيفية أن تصف المواقف الطبيعية والعلاقات والأوضاع والعمليات والنظم والأداء والسلوك.
- **التفسير "Interpretation":** تمكن البحوث الكيفية الحصول على رؤية متعمقة عن ظاهرة معينة، وتطوير مفاهيم جديدة أو مداخل نظرية عن الظاهرة، وكذلك اكتشاف المشكلات التي توجد في الظاهرة، فالتفسير الذي تقدمه البحوث الكيفية لا ينبثق من متغيرات تم قياسها كميا والتحكم فيها وضبطها ومعالجتها إحصائيا، وإنما ينبثق من تحليل البيانات والمعلومات الكيفية والربط بينها والاستنتاج منها.
- **التقييم "Evaluation":** يمكن للباحث من خلال البحوث الكيفية أن يحصل على المعايير التي بموجبها يمكنه إصدار أحكام تقييمية على فاعلية سياسات أو ممارسات معينة.

هوامش ومراجع:

1- سليم العايب: تنظير معرفي للمقاربة الكمية والكيفية في العلوم الاجتماعية، مجلة آفاق لعلم الاجتماع، جامعة البليدة2، المجلد 2، العدد 2، ماي 2013.

2- علي عبد الرزاق جلبي، المناهج الكمية والكيفية في علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية.

3- فضيل دليو، البحوث الكيفية. الجزائر: ألفا للوثائق، 2022.

4- عامر قنديلجي، إيمان السامرائي، البحث العلمي الكمي والنوعي، دار اليازوري، عمان، 2018.